القادمين ، ليبنوا وطنا قوميا على انقاض المسجد الاقصى وكنيستي المهد والقيامة بمعاونة الحكومة البريطانية اعتمادا على تصريحها بلسان بلفور ... وبذلك يجمع عرب البلاد مسلميهم ومسيحييهم للدفاع عن مقدساتهم وتراثهم في الاراضي المقدسة . وقد شارك الشاعر منذ سنة ١٩١٩ في اظهار احتفالات المولد النبوي بمظهر قومي في حيفا وسائر مدن فلسطين ، حتى اصبح العيد شعبيا ، تسير فيه المواكب عربية صرفا ، يحضرها الرؤساء الروحيون فضلا عن اعيان النصارى دون ان يحضرها احد من اليهود[٢٤] .

ولا بد لنا من ان نكبر الدور الذي قام به الشاعر بوعي واستنارة منذ وقت مبكر ، حتى لنراه مرفوعا على اكتاف المتظاهرين يوم ١٩٢١/٣/٢٨ احتجاجا على تصريح بلفور في وجه المستر تشرشل ، وزير المستعمرات آنئذ ، وكانت الجماهير تردد وراء شاعرنا نشيده الحماسي المثير الذي نحس فيه بأثر الروح الشعبية الصلبة ، وبالحماسة الوطنية ، وبالدعوة الدينية الموحدة الجامعة بين المسلمين والمسيحيين في الاراضي المقدسة . وقد خضع فيه لمعطيات الموقف فجاء نشيده الطويل مجزّأً في وحدات صغيرة لكل منها قافية موحدة ، ليناسب مخاطبة الجماهير وترديدها له وراء الشاعر ، قائد المظاهرة ، ومنه :

يا للنصارى والمسلمين ... لمن تركتم فلسطين
نمتم فقوموا باسم الدين
هذي بلادي ام البلاد ... مثوى اجدادي والاحفاد
ما للاعادي فيها زاد
قدست ارضا روحي فداها ... ولست ارضى لي سواها
اموت فرضا في هواها
ربي موحد دين صحيح ... والارض معبد للتسبيح
يا قوم احمد والمسيح
الله الله الله الله ... الله الله الله [٢٥]

ونحن ندرك ان الناس بدأوا يتنبهون الى خطر الانتداب البريطاني ورعايته اهداف الصهيونية وحمايته لها ، وموقفه ضد العرب ، وان بدا في دور حامي الامن والسلام ، خصوصا ، بعد اضطرابات القدس في نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٠ واضطرابات يافا في اول ايار (مايو) سنة ١٩٢١ .

ففي هذا الوقت ، نرى اسكندر الخوري البيتجالي يتململ فيه حس الوعي على الواقع الظالم الذي قام بقدوم بريطانيا وانتدابها ، فيبدو ، في هذه الفترة ، حائرا مرتبكا ، كانه لا يريد ان يصدق دور « الحليف » الذي بدأ يستشعره امام بصره وفي بصيرته من خلال مرارة الواقع المشاهد ، الامر الذي صدم فكره وآماله واحاسيسه ؛ فهو في صيدة « عيد الزهور » التي نظمها اثر الاضطرابات ، وقد صادف وقوعها يوم عيد الزهور اول ايار (مايو) ، يقول ، مدفوعا بنية طيبة وبروح ساذجة :

في فلسطين كان عيدا ولكن ... عيد قتلٍ وفتنة وشرور
واضطراب وضجة وعويل ... بدل الرقص والهنا والحبور